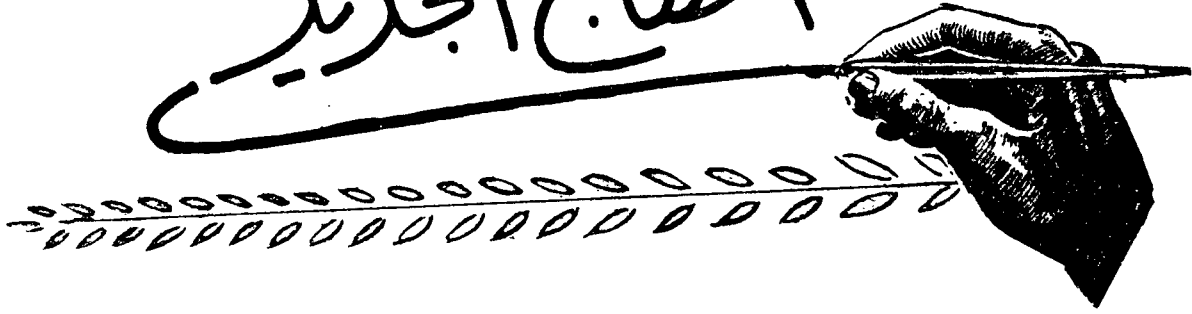


النتائج الجديدة



مأساة الحلاج

مسرحية شعرية بقلم صلاح عبد الصبور
منشورات دار الاداب ، بيروت ، ٢٠٨ صفحة

قدم صلاح عبد الصبور في مسرحيته الشعرية الاولى « مأساة الحلاج » شخصية بطل عاش فيما بين سنتي ٢٤٤ هـ ، على الترجيح ، و ٣٠٩ هـ ، ولكنه ينتمي بافكاره واحساسه الى العصر الحاضر . هذا البطل هو المتصوف الاسلامي الحسين بن منصور الحلاج، الذي استشهد مصلوبا في بغداد من اجل ارائه السياسية والاجتماعية التي جهر بها .

والاتجاه الى التاريخ ظاهرة قوية في المسرح المصري المعاصر . ففي الموسم الحالي شاهدنا على منصة المسرح القومي مسرحية انفريد فرج « سليمان الحلبي » الذي قتل سنة ١٨٠٠ كبير ، قائد الحملة الفرنسية على مصر . وكان الفريد قد سبق له منذ ثماني سنوات ان اقتحم التاريخ الفرعوني بمسرحية « سقوط فرعون » التي صورت مأساة رسول السلام، « اخناتون » ، الذي اراد ان يجمع بين دعوة النبي وصولجان الحاكم ، فرأى بلاهه تذهب بددا امام جحافل الغزاة .

كما ان المسرح القومي قدم ايضا في هذا الموسم مسرحية عبدالرحمن الشرقاوي الشعرية « انفتى مهران » التي تدور في احدى القرى المصرية في القرن الخامس عشر اثناء حكم المماليك الجراكسة . وعبد الرحمن الشرقاوي هو الذي مثلت له سنة ١٩٦٢ « مأساة جميلة » : الفتاة التي تصدت للاستعمار الفرنسي الفاشم على الجزائر . وله عدة مسرحيات شعرية اخرى اتم كتابتها من التاريخ هي : « مأساة الحسين » ، « الاسير » ، « سانت كاترين » .

وقد صدر للدكتور لويس عوض سنة ١٩٦١ مسرحية تاريخية عن دار ايزيس بعنوان « الراهب » استقامها من تاريخ مصر ايام حكم الرومان لها .

ولا تتناول هذه المسرحيات وغيرها التاريخ في حد ذاته ، لكي تعرض امامنا صفحة مطوية من صفحات المجد الفابر - ذلك عمل المؤرخ ومقصده ، بل انها تتخذ من احداثه اطارا تصب في داخله مضمونا عصريا ، لحيته وسداه هموم هذا الجيل من الابداء الذي يواجه تحديات بالغة ، وموقفه الايجابي من الحياة ، ورؤيته ، واحلامه . .

ويتفاوت التعبير بحسب وعي الكاتب بظروف المجتمع والمرحلة الحضارية من جهة ، وتوفيق الشكل المسرحي في احتواء المضمون الذي يحمله النص من جهة اخرى .

ومع هذا فلا معدى للكاتب من التزام حقائق التاريخ . اجل ، ومن يعد هذا الالتزام قيادا على الفنان يخطيء . ان حقائق التاريخ ليست ملكا لاحد لكي يتصرف فيها ، اما تفسيرها على اي نحو يراه فهو احد حقوق الكاتب المشروعة ، لان العمل الفني الذي يقيمه من خلفه وابتكاره .

وغني عن البيان ان المسرحية الشعرية التي يكون الشعر احسد عناصرها الداخلية وبعض نسيجها ، وليس قالبا خارجيا ، تبلغ من نفوس المدلقين مناطق لا يستطيع النثر ان يبلغها . ذلك ان لفة الشعر تحمل من امكانيات التكثيف والتبض ما لا تستطيع لفة النثر ، لفة التقرير ذات المفادات المستقرة ، ان تحمله . كما ان لفة الشعر الموقعة اقدر على الاحتفاظ بجلال التاريخ ، واحاطته بهذه الهالة الميقة للصائفة .

وصلاح عبد الصبور شاعر انقاد ته نظم القرص ، صدرت ته ثلاثة دواوين تؤكد اننا بازاء شاعر فحل هام بالعرب القدماء الى جوار وقوفه على صرح الشعر الاوروبي المعاصر . لذلك فان معرفتنا بقاموسه الشعري تساعدنا من غير شك على تفهم هذه المسرحية التي نحن بصدها ، فان اصداها من المرارة والكتابة والحزن العميق التي اتسمت بها دواوينه تتردد بقوة في هذه المسرحية التي خضع الشعر فيها خضوعا كاملا للمواقف المسرحية . الامر الذي يجعل الناقد يقرر باطمئنان اننا نتجه بقدم ثابتة الى المسرح الشعري بعد ان قطعنا رحلة طويلة وقف الشعر فيها في المقدمة ثم اتى المسرح . . وقد كان اعلام هذه الرحلة احمد شوقي وعزيز اباطة وعبد الرحمن الشرقاوي رغم خروجه على وحدة البيت والثقافية . ولان شخصية الحلاج هي المحور الذي تدور حوله المسرحية، فمن خلال مأساتها المحتومة سنتعرف على مأساة الوجود كما يراها صلاح عبد الصبور .

كيف صور شخصية الحلاج ؟

نقابل الحلاج اول ما نقابله مصلوبا في احدى ساحات بغداد ، فيستقر في روعنا اننا مقدمون على عالم مفعج ، صورته الدم ، والجوع والقحط والجذب ، والقيظ والعمى ، وحروف الفاظها هادئة ، بطيئة الايقاع ، ولكنها مليئة بالذاب . تتساءل العامة من حوله عن هذا الشيخ المصلوب الذي « يبدو كالفارق في النوم » ، « عيناه تنسكبان على صدره » ، « وكان ثقلت دنياه على جفنيه ، او غلبته الايام على امره » فهو المتأمل المنكسر المقهور .

ولكن من الذي قتله ؟ بعد قليل نكتشف ان قاتل هذا الشيخ فثنان: قتلناه بالكلمات التي ضحى حياته من اجلها . الفئة الاولى هي العامة التي اعلنت زندقته وكفره حين خطف بصرها بريق الدينار ، وفئة الصوفية التي ينتمي اليها ممن احبوا كلماته اكثر مما احبوه « فتركناه يموت لكي تبقى الكلمات » .

بذلك نفهم العلاقة العنصرية بين سر انصلاص ، وعنوان الجزء الاول من هذه المسرحية المسمى « الكلمة » .

ولم يتم هذا الصلص على غير مشيئة الحلاج ، بل بمشيئته . وقد اتته هذه المشيئة عن اعتقاد ان دمه سيدب الحياة في عوده الذي يشبه شجرة صغيرة .

« شجيرة جديدة زرعناها بلقفي القيم
فدبت الحياة فيها ، طالت الاغصان

مثمرة تكون في مجاعة الزمان

خضراء تعطي دون موعد ، بلا أو ان «

فالبذل أو القضاء على الجوع بعض همومه نحو المجتمع. وباستشهاد
كان أمينا في دعواه ، وبهذه الامانة ضمن لكلمانه الصيرورة والنفاذ .
ثم يجيء صاحبه وحبيبه الشبلي ، لينأجيه وهو مصنوب . ومن هذه
المناجاة المؤسسة يتكشف اماننا كأوضح ما يكون جانب الإيجابية في
شخصية الحلاج الثائر الذي بلغ رتبة اليقين .

« لو كان لي بعض يقينك

لكنت منصوبا الي يمينك . »

ونعود في المنظر الثاني الى الورا ، فتواجه الشبلي والحلاج وهما
يحاوران محاوراة من يقفان على طرفي نقيض : الصوفي الزاهد المنسحب
من الحياة ، وهو الشبلي ، في مقابلة الصوفي المشارك للحياة ، الذي
يتابع مسيرة الشمس فوق الطرقات ، وينطق كانشهاب « فوق الساعات ،
الخانات ، المارستانات ، الحمامات » ، حتى يشك أن عينيه ارمدا من
تحديقه في النور الخارج ، من مواجهة العالم التمس ، بينما الشبلي ،
المتامل للذات ، يدعوه الي ان ينظر « للنور الباطن » .

وهذه هي علة سعادة الشبلي الذي يرى في قلبه حدائق مثمرة
بالاشجار والثمار .. الخ . - هي جنة المسلمين في الارض الجرداء .
ان الشبلي هو الصوفي المعتزل ، الذي يجفل من مخالطة الحياة
لانه يجفل من موت نور الله بقلبه ان هو اخلط وتعلق بالحياة . اذ
ذاك يسالمه الحلاج :

« هينا جانينا الدنيا

ماذا نصنع عندئذ بالشر ؟ .. »

سيظل الشر قائما كما هو بالطبع ، ذلك ان مجانيته لا تدمغه .
ويقترّب من هذا المعنى ذلك التساؤل الذي ورد عى لسان سليمان
الحلبي في مسرحية الفريد فرج : « ايسئوي عند الله من يعف عن الشر
ومن يتصدى للشر ؟ جلت حكمته عن ذلك » (1) ولكن اذا كانت وسيلة
سليمان للقضاء على الشر حمل السلاح ، فوسيلة الحلاج الكلمات .
فهو نستطيع ان نرجع السبب الي أن سليمان الحلبي كان يعنّي
بالشر الاستعمار ، بينما الحلاج يعني به في المحل الاول فقر الفقراء
وظلم الحكام وفقدان الحرية ، ام ترجع الي نظرة صلاح عبد الصبور ؟
وفي هذا الحوار يبلور الحلاج موقفه :

« يا شبلي

الشر استولى في ملكوت الله

حدثني .. كيف اغض انعين عن الدنيا

الا ان يظلم قلبي ؟ »

والمنصرف عن اصلاح العالم قلبه مظلم ، وان مواجهة الشر ، وتقتصر
هذه المواجهة على الكلمات ، علامة النور في القلب .

بهذا الموقف يختلف الحلاج مع الصوفية ويرتفع عليهم ، فهو لا
يقف عند حد الوجد والتعبد ومناجاة الليل والاحتجاب في آيينه ، بل
يتقدم ، بتخلع الخرقه التي ترتديها الصوفية ، اى الفعل . وليس خلعه
لها خروجا عن الله كما نذهب الجماعة ، بل « اخلعه في مرضاتك .. » .
اختار الحلاج هذا الطريق للخلاص . وجملة الراء اني جهر بها ،
ووقف في مواجهة العصر من اجلها ، ان صلاح الامة لا يتم الا بصلاح
الوالي ، « قلبها » ، وهو يعتبر ان :

« الوالي العادل

قيس من نور الله ينور بعضا من ارضه

اما الوالي الظالم

فستار يحجب نور الله عن الناس »

ويدافع عن العدل ، القيمة العليا ، ويرى حفظ حقوق الشعب
والحكام جميعا .

هذه هي الكلمات التي شقي بها الحلاج لكي تتحقق . ومصدر هذا

الشقاء احساس لديه بعجز الخطو - أي الفعل ، ولعله السيف الذي
رفض اتخاذه وسيلة .

« أنا انسان يظما للعدل ويقعدني ضيق الخطو »

ويعد هذا العجز قاسما متروكا في ابطال الماسي ، وهو ضعف
انساني لا يرد . لقد كان امام صلاح عبد الصبور فرصة ذهبية لاقامة
تراجيديا حقيقية . فلو انه تعمق هذا التوزع النفسي في شخصية
الحلاج ، وتابع منحني الصراع بين الفكر الذي نادى به ، والذي لا يغير
وجه الحياة تغييرا جذريا ، والفعل المحتوم ، لو ان صلاح عبد الصبور
تابع هذا الانفعال المضارب ، يقيه وينمي ، ولم يقتصر على هذه الاشاعات
التي لا تلبث ان تخبو - تقدم مأساة حقيقية سليمة المنطق الدرامي .

هذا هو الصدع الذي تقام عليه الدراما . اما ما ذكره صلاح عبد
الصبور على ظهر الغلاف من ان وقفة الحلاج الحائرة بين ضياع الحقيقة
عند المشي بها بين الناس ، او كتمانها في نفسه مثلنذا ، فهي غير
موجودة في النص المطبوع ، وثمة ما ينقصه ، لان الحلاج كان قد استقر
الى طريق الجهر ، ولم يجد فيه خروجا على الله .

وقد اشار الى هذا النقص في الدراما محمود امين العالم فسي
مقالته النقدية القيمة « مأساة الحلاج بلا مأساة » التي نشرت في مجلة
« المصور » عدد 18 فبراير 1966 ، وكرر هذه الاشارة من بعده ناهض
الريس في جريدة « اخبار فلسطين » عدد 7 مارس تحت عنوان « مأساة
الحلاج .. مسيح من روح الانسان » .

ويفتتح المنظر الثالث على الخلاف القائم حول الحلاج . فاذا كان
البؤساء : الاحدب والاعرج والابرص ، آمنوا به ايمان التخلص ، فان
المتصوفة انشقوا فيما بينهم حول خلع الخرقه ، فمن قائل ان خلعهما
ونزوله الي الناس يخرجهم من الصوفية ، ومن قائل ان خلعهما لا يعني
خلع القلب الذي وسد فيه .. مما يعمق من مجرى التحدي ويضع به
الى الامام .

وبعد قليل يمارس الحلاج دعوته بالقاء انحطب لمواجهة أتى الغرياء
والفقراء والمرضى وكسيري القلب .. مما يذكرنا على التو بالسيّد
المسيح . ان روحا من نبرة الانبياء تسري في كلمات صلاح عبد الصبور .
ولعل اهم ما جاء في هذه الخطبة ان « القحط » مصدر جميع الشرور ،
ودعوة الناس الى التشبه بالله على نحو ما تم له .

ويكشف حلول الله فيه اعطى السلطة حق انقبض عليه وتكفيره .
فظاهر الامر يبدو انه حوكم وادين وصلب من أجل ذلك ، كما سنتبين
خلال المحاكمة الصورية في الجزء الثاني من المسرحية ، وباطن الامر انه
حوكم من اجل ارادته السياسية في الدولة .

وعلى الرغم من معرفة الشعب هذه الحقيقة ، فلم يكن بطوقهم انقاذ
الحلاج من السلطة .

« هذا حق

فالشرطة خدام السلطان

ما للشرطة والحب

فلنطلقه من ايديهم »

بلا جدوى ، فمن قال كلمته وافصح عن رأيه استحق الجزاء .
لذلك يوصينا الواعظ في مختتم هذا المنظر قائلا :

في البحرين

تطلب « الآداب » وكتب « دار الآداب »

من
الشركة العربية للوكالات والتوزيع
شارع المتنبى

« والعاقل من يتحرز في كلماته

لا يتعرض بالسوء

لنظام او شخص او وضع او قانون او قاض او وائل

او محتسب او حاكم «

من اراد السلامة وجب عليه كتم كلماته في صدره . اما من لم

يستطع ان يكتمها فسيلقى الوبال .

نتقل بعد ذلك الى الجزء الثاني الذي يسميه صلاح عبد الصبور

« الموت » ، وقد تحدثت امامنا قضية الحلاج مع الدولة .

ويتألف هذا الجزء من منظرين ، يدور الاول في سجن مظلم بسه

سجينان يدخل عليهما الحلاج ، فيسأل احدهما اذا كان القادم :

« سجنوه اذ هو اضعف من ان يفلت من عسف القانون

ام شرير ، قد سلطت الايام عليه شريرا اكبر منه «

بما يوحي ان قانون الغابة هو السائد في هذه الدولة .

ويمثل هذا السجين نهودجا ثالثا مختلفا عن الشبلي والحلاج . انه

لا ينسحب من انجياة كالاول ، ولا يؤمن بجذوى الكلمات في استئصال

الاشرار والقضاء على النظام الفاسد ، لا ، بل يرى ان الطريق الوحيد

الى الاصلاح هو حمل السيف : معنى من اجمل المعاني التي عبقت بهسا

هذه المسرحية .

الا ان الحلاج رفض البذرة التي القاها في نفسه هذا السجين قبل

ان يهرب ، بعلة المجز عن الجزم بموطن الشر ، ولان تكوين شخصيته لا

يسمح له ان يتخذ القتل سبيلا الى اصلاح العالم .

وبالحيرة البالغة بين الصوت والسيف ، الكلمة واقتتل ، التمني

والفعل ، يتفجر العذاب في نفس الحلاج ، ويزداد اقترابا من نفوسنا .

« هل ارفع صوتي ،

ام ارفع سفي ؟

ماذا اختار .. ؟

ماذا اختار .. ؟ «

ويدور المنظر الثاني في المحكمة التي يتألف قضاتها من ثلاثة ، يمثل

اثنان منهم حكم السلطة الجائرة ، هما ابو عمر الحمادي وابن سليمان ،

ويمثل الثالث الافكار اللامعة عن الحق والعدالة .

ومن الكلمات الاولى لابي عمر :

« لم لم يأتوا بالرجل المفسد حتى الان ؟ «

نرتاب في سلامة المحكمة ، ونعرف ان العدالة لن تأخذ مجراها .

فها هو رجل يدان سلفا ، قبل ان يمثل امام قضاته ، فكيف يمكن لكفتي

الميزان ان تفتدلا ؟

كانت التهمة التي وجهت الى الحلاج انه يفسد الامة

« مولانا يدري من زمن انك تبغي في الارض فسادا

نلقي بذر الفتنة

في افئدة العامة

وعقول الدهماء «

وفي البداية لا يعترف الحلاج بالقضاة ، ويرفض الدفاع عن نفسه،

ثم باستدراجه ان يكون القضاة من اتباعه يعرض تاريخ حياته عرضا

اشبه ما يكون « بالمونولوج » ، في مشهد من اهم مشاهد هذه المسرحية .

مشهد نلمس من خلاله الجهاد العظيم الذي عناه الحلاج مذ كان صفيرا ،

والتحول الذي طرأ عليه . لقد عرك هذا المصلح الحياة في دركها، وطلب

العلم من كتب العلوم والتاريخ فلم تهده الى المعرفة الصحيحة لسر

الوجود ، فأتجه الى الصلاة بدافع الخوف ثم الطمع ، فادرك انه مشرك .

الى ان التقى بشيخه ابي العاص عمرو بن احمد الذي علمه كيف

يعشق الله في ذاته ، كيف يعطي دون ان يأخذ - وهي تهمة الزندقة

التي تدرعت بها المحكمة لصلبه ، اذ ان الاسلام لا يوافق على عقيدة

الحلول ، او استفراق المخلوق في الخالق ، لتمايز الطبيعتين .

اما افكاره الاساسية التي يدعو بها لتلاصيح فمحورها :

« لا يفسد امر العامة الا السلطان الفاسد

يستعبدهم ويجوعهم «

لذلك فهو يضع نصب عينيه اصلاح المسؤولين عن الدولة ، اولئك

الذين يتوقع ان يكون بيدهم الامر في مستقبل الايام، من احبائه الوزراء

وامراء الامصار من امثال الماذرائي واحمد بن طولون والقناني الذين كان

الحلاج يرأسهم . فباستيلاء أحد هؤلاء على الحكم يتم التوفيق بين

الكلمة التي وقف حياته لها ، والفعل الذي لم يستطع ادائه ، فتتحقق

المدينة الفاضلة التي تخلو من الفقر ، معادل القهر واس البلاء، ويتحاب

فيها البشر .

رأى ابو عمر في كلماته تنديدا بالحكم القائم

« الانسان شقي في مملكة الله

معنى هذا ان الامة تشقى في ظل خلافة مولانا «

وانهاما بنهب الافوات ، ودعوة الى التمرد ايضا .

وقبل ان يصدر الحكم يأتي مبعوث من قبل وزير القصر يحمّل

رسالة بها عفو عن الحلاج من تهمة تحريض العامة « عفاوا كليا لا رجعة

فيه » ، فلتنقط انفاسنا ، ونشعر ان العدالة ممكن ان تستقر ، لان من

طلب اصلاح المجتمع لا يستحق ان يعاقب .

ولكن طمانيتنا تذهب ادراج الرياح ازاء بقية الرسالة التي تحمل

ادانة بتهمة الزندقة ، وهو ما فسره ابن سريج بانهم

« فلقد احكمتم حبل الموت

لكن خفتن ان تحيا ذكراه

فاردتم ان تمحوها «

ويستعفي من المجلس ، ويفادر القاعة كصرخة احتجاج .

وبعد ذلك ما كان اسهل ان تؤلب العامة ضد الحلاج ، وتساق لكي

يقتل ويصلب في جذع شجرة . وبذلك نعود الى المشهد الاول المفجع

الذي افتتحت به هذه المسرحية الشعرية .

مؤلفات سيمون دو بوفوار

ق . ل

● المثقفون - رواية جزآن

١٤٠٠

ترجمة جورج طرابيشي

● انا وسارتر والحياة

٤٠٠

ترجمة عابدة مطرجي ادريس

● مغامرة الانسان

١٥٠

ترجمة جورج طرابيشي

● الوجودية وحكمة الشعوب

١٧٥

ترجمة جورج طرابيشي

● نحو اخلاق وجودية

٢٢٥

ترجمة جورج طرابيشي

● بريجيت باردو وآفة لوليتا

١٥٠

● قوة الاشياء - جزآن

١١٠٠

ترجمة عابدة مطرجي ادريس

منشورات دار الاداب

نبيل فرج